﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٩﴾ [الحجّ: 8 - 9]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

ذكرُ حالِ الدُّعاةِ إلى الضَّلالِ بعدَ ذكرِ قدرةِ الله على الإيجاد والإفناء

ذُكِرَ في مناسبةِ هاتينِ الآيتينِ لِما قبلَهما ببضعِ آياتٍ وجهٌ مبنيٌّ على أحدِ الأقوالِ في تعيينِ مَنْ نزلتِ الآيتانِ في حقِّهِ على ما سيأتي تفصيلُهُ، وذلكَ الوجهُ: هو أنَّهُ لمّا ذكرَ تعالى حالَ الضُّلّالِ الجُهّالِ المُقلِّدينَ في قولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣﴾ [الحجّ: 3] – ذكرَ في هذهِ حالَ الدُّعاةِ إلى الضَّلالِ مِنْ رؤوسِ الكفرِ والبِدَعِ، فقالَ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ الآيتينِ[1]، ذلك أنّه مع كلّ الأدلة البيّنة الواضحة، فإنّ بعضَ النّاس يجادل في الله وقدرته، بصلف وجهل وتعنّت، وينكر البعثَ بغير معرفة مسعفة، ولا برهان عقليّ مرشد، ولا وحي من عند الله منير، فيزلّ ويضلّ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُجَٰدِلُ﴾: المعنى المحوريُّ للأصل (جدل) هو استحكامُ الشَّيءِ في استرسالٍ يكونُ فيهِ[3]، والجِدالُ: المُفاوَضةُ على سبيلِ المُنازَعةِ والمُغالَبةِ، وأصلُهُ مِنْ جَدَلْتُ الحَبْلَ، أي: أحكمتُ فَتْلَهُ، فكأنَّ المتجادلينِ يَفْتِلُ كلٌّ واحدٍ الآخرَ عن رأيِهِ، قالَ تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النّحل: 125]، وقالَ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾[4]،

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 399، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 17/ 91.
(2) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/ 451.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جدل)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جدل).
(4) الراغب، المفردات: (جدل).

ورَجُلٌ جَدِلٌ مِجْدالٌ، أي: خَصِمٌ مِخْصامٌ[1]، ويقال: إنّه لَجَدِلٌ، إذا كان شديد الخصام، وإنّه لَمِجْدَلٌ، وقد جادل فلانا جِدالا ومُجادلة[2]، وقوله ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف: 54]، قال الزّجاج: عنى بالإنسان هنا الكافر، ويدلّ على ذلك قوله ﷻ: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [الكهف: 56][3].

2) ﴿مُّنِيرٍ﴾: للأصل: (نير) معنىً جامعٌ، وهو وُضوحُ الشَّيءِ وبُروزُهُ[4]، فالمَنارُ: عَلَمُ الطَّريقِ الَّذي يُهتدى لهُ[5]، وأنارَ الثَّوْبَ ونارَهُ ونيَّرَهُ: أعلمَهُ[6]، والنّورُ: الضَّوءُ المُنتشِرُ الَّذي يُعينُ على الإبصارِ، وذلكَ ضربانِ: دُنيويٌّ، وأُخرويٌّ، فالدُّنيويُّ ضربانِ: ضربٌ معقولٌ بعينِ البصيرةِ، وهو ما انتشرَ مِنَ الأمورِ الإلهيَّةِ، كنورِ العقلِ ونورِ القُرآنِ، ومحسوسٌ بعينِ البصرِ، وهو ما انتشرَ مِنَ الأجسامِ النَّيِّرةِ، كالقَمَرينِ والنُّجومِ والنَّيِّراتِ، فمِنَ النّورِ الإلهيِّ قولُهُ تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة: 15]، ومِنَ المحسوسِ الَّذي بعينِ البصرِ، نحوُ قولِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: 5]، ومِنَ النّورِ الأُخرويِّ قولُهُ: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الحديد: 12][7].

3) ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾: المعنى المحوريُّ للأصل (ثني) هو تكريرُ الشَّيءِ مرَّتينِ، أو جعلُهُ شيئينِ متواليينِ أو متباينينِ، ومِنْ ذلكَ قولُكَ: ثَنَيْتُ الشَّيءَ ثَنْيًا، والاثنانِ في العددِ معروفانِ، والمُثَنّاةُ: ما قُرِئَ مِنَ الكتابِ وكُرِّرَ، قالَ سبحانَهُ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ [الحجر: 87]؛ لأنَّ قراءتَها تُثنّى وتُكرَّرُ[8].

والعِطْفُ: المَنْكِب، وهو مُجْتَمَعُ عَظْمِ العَضُد والكَتِف، ومعناه المحوري: ثَنْيُ الممتدِّ إلى غيرِ وِجْهةِ بَدْءِ امتداده، تقولُ: عَطَفْتُ رأسَ الخشبة فانعطف، أي: حَنَيتَهُ فانحنى، ومن العِطف بالكسر العِطافُ، وهو الرّداء، لوقوعه على عِطْفَي الرجل[9].

(1) الخليل، العين: (جدل).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جدل).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (جدل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نير).
(5) السّمين، عمدة الحفاظ: (نير).
(6) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (نير).
(7) الرّاغب، المفردات: (نير).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثني).
(9) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عطف).

وقوله: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾، أي: لاوي عُنُقِه، وهُنَّ عواطفُ: أي: ثواني الأعناقِ، وثَنَى فلانٌ على عِطْفِهِ إذا أعرضَ عنكَ وجفاك[1]، وقولُهُ ﷻ: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾، كناية عن التَّكبُّرِ والإعراضِ، نحوُ: لَوَى شِدْقَهُ؛ فقوله: ﴿ثَانِيَ﴾ اسمُ فاعلٍ مِنْ ثَنَى يَثْنِي[2]، وعِطْفا الإنسانِ: جانباهُ[3].

4) ﴿خِزْيٌ﴾: للأصل (خزي) معنيانِ رئيسانِ: أحدُهما: السّياسةُ، والآخرُ: الإبعادُ، فمِنَ الأوَّلِ قولُهم: خَزَوْتُهُ، إذا سُسْتُهُ، ومِنَ الآخرِ قولُهم: أخزاهُ اللّهُ، أي: أبعدَهُ ومَقَتَهُ[4]، وخَزي الرَّجلُ: لَحِقَهُ انكسارٌ: إمّا مِنْ نفسِهِ، وإمّا مِنْ غيرِهِ، فالَّذي يَلْحَقُهُ مِنْ نفسِهِ، هو الحياءُ المُفرِطُ، والَّذي يَلْحَقُهُ مِنْ غيرِهِ يقالُ: هو ضَرْبٌ مِنَ الاستخفافِ، قالَ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ [المائدة: 33][5]، وخَزي يَخْزَى خِزْيًا: ذلَّ وهانَ[6]، ويمكنُ إرجاعُ المعنيينِ إلى معنىً محوريٍّ واحدٍ؛ وهو ذُلُّ الحيِّ وطَواعيتُهُ وانقيادُهُ لِما يُرادُ؛ لكَسْرِ حِدَّةِ استعصائِهِ أو رغبتِهِ، ومن ذلكَ: خَزا نفسَهُ: مَلَكَها وكفَّها عن هواها[7].

5) ﴿عَذَابَ﴾: عَذُبَ الماءُ يَعْذُبُ عُذوبةً، فهو عَذْبٌ، أي: طيِّبٌ[8]، وأعذبَ القومُ، إذا عَذُبَ ماؤُهم، واستعذَبوا، إذا استَقَوْا وشَربوا عَذْبًا[9]، والعذابُ: هو الإيجاعُ الشَّديدُ، وقد عذَّبَهُ تعذيبًا: أكثرَ حَبْسَهُ في العذابِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿لَّأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [النّمل: 21]، واختُلِفَ في سببِ تسميةِ العذابِ بذلكَ، فقيلَ: هو مِنْ قولِهم: عذبَ الرَّجلُ، إذا تركَ المَأْكَلَ والنَّوْمَ، فهو عاذبٌ وعَذوبٌ، فالتَّعذيبُ في الأصلِ هو حَمْلُ الإنسانِ أنْ يعذبَ، أي: يَجوعَ ويَسْهَرَ، وقيلَ: أصلُهُ مِنَ العَذْبِ، فعذَّبْتُهُ: أزَلْتُ عَذْبَ حياتِهِ، وقيلَ: أصلُ التَّعذيبِ، إكثارُ الضَّربِ بعَذَبةِ السَّوْطِ، أي: طَرَفِها، وقيلَ: التَّعذيبُ هو الضَّربُ، وقيلَ: هو مِنْ

(1) الخليل بن أحمد، العين: (عطف).
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (ثني)، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 66.
(3) الرّاغب، المفردات: (عطف)، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 109.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خزو).
(5) الرّاغب، المفردات: (خزو).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (خزو)، والزّبيدي، تاج العروس: (خزو).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خزو).
(8) الخليل، العين: (عذب).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عذب).

قولِهم: ماءٌ عَذْبٌ، إذا كانَ فيهِ قَذًى وكَدَرٌ، فيكونُ عذَّبتُهُ، كقولِكَ: كدَّرتُ عَيْشَهُ[1]، وقولُهُ: ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، أي: عذابَ النّارِ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَصيرُ المُجادِلِ بالباطلِ الخِزْيُ في الدُّنيا وعذابُ الحريقِ في الآخرةِ

يُخبِرُ اللّهُ سبحانَهُ عن حالِ المُجادِلِ بالباطلِ المُتكبِّرِ المُعرِضِ عنِ الحقِّ، فيقولُ: ومِنَ النّاسِ مَنْ يخاصمُ في دينِ اللّهِ وتوحيدِهِ، بغيرِ علمٍ منهُ بما يخاصمُ بهِ، وبغيرِ بيانٍ معَهُ، لِما يقولُ ولا بُرهانٍ، وبغيرِ كتابٍ مِنَ اللّهِ أتاهُ يُنيرُ عن حُجَّتِهِ، وإنَّما يقولُ ما يقولُ جهلًا وظنًّا منهُ، ويكونُ هذا المُجادِلُ بالباطلِ مُتكبِّرًا مُتبخترًا لاويا عُنُقَهُ؛ إعراضًا واستكبارًا عن قبولِ الحقِّ؛ ليصدَّ عن دينِ اللّهِ، ثمَّ يُخبِرُ جلَّ ثناؤُهُ عن عقوبتِهِ، ويقولُ: لهذا المُجادِلِ في اللّهِ بغيرِ علمٍ في الدُّنيا خِزْيٌ، وهو القتلُ والذُّلُّ والمَهانةُ بأيدي المؤمنينَ، ونُذيقه عذاب الحريق، أي: نحرقه يومَ القيامةِ بالنّارِ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة تعيين المُجادِلِ في الآية الكريمة:

(العِبْرة بعُمومِ اللَّفظِ لا بخصوصِ السَّببِ)

في قولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾، وفيه اختُلِفَ في تعيينِ المُجادِلِ المذكورِ هنا على أقوالٍ: فقيلَ: هو أبو جَهْلٍ[4]، وقيلَ: هو الأخنسُ بنُ شريقٍ[5]، وقيلَ: هو النَّضْرُ بنُ الحارثِ[6]، كما ذُكِرَ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾ [الحجّ: 3] نازلٌ فيهِ، فكُرِّرَتْ قصَّتُهُ كما كُرِّرَتْ

(1) الرّاغب، المفردات: (عذب)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (عذب).
(2) الراغب، المفردات: (حرق)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (حرق).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 572 - 573.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 146.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 487.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 573، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 15.

أقاصيصُ سائرِ المعاندينَ، أو كُرِّرَتْ ليُناطَ بها هنا ما لم يُنَطْ بها أوَّلًا؛ فقولُهُ: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾ [الحج: 3] ذمٌّ للمُقلِّدينَ، وقولُهُ: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ذمٌّ للمُقلَّدينَ[1].

وعلى كلِّ حالٍ فالآيةُ عامَّةٌ لكلِّ مَنْ يتصدَّى لإضلالِ النّاسِ وإغوائِهم؛ لأنَّ العِبْرةَ بعُمومِ اللَّفظِ لا بخصوصِ السَّببِ[2].

دلالةُ الواوِ في جملة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

تنوّع التّأويل الإعرابيّ يتّسع به المعنى ويتجلّى به القصد

قيلَ: الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ﴾ للحالِ، والجملةُ حاليَّةٌ، كأنَّهُ يقولُ: فهذهِ الأمثالُ في غايةِ الوضوحِ والبيانِ، ومِنَ النّاسِ معَ ذلكَ مَنْ يُجادِلُ[3].

وقيلَ: الواوُ للعطفِ، والجملةُ عطفٌ على جملةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ [الحج: 5]، والمعنى: (إنْ كنتُم في رَيْبٍ مِنْ وقوعِ البَعْثِ، فإنّا نُزيلُ رَيْبَكم بهذهِ الأدلَّةِ السّاطعةِ)، فالنّاسُ بعدَ ذلكَ فريقانِ: فريقٌ يوقِنُ بهذهِ الدَّلالةِ، فلا يبقى في رَيْبٍ، وفريقٌ مِنَ النّاسِ يُجادِلُ في اللهِ بغيرِ علمٍ، كما هو حالُ أئمَّةِ الشِّركِ وزُعَماءِ الباطلِ[4].

سرُّ تقديمِ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ على ﴿مَن يُجَٰدِلُ﴾:

مراعاةُ حُسنِ نظمِ الكلامِ مُفضٍ إلى نصاعته وبيانه

قُدِّمَ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ على ﴿مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾، في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لأن المقام مقام تقسيم وتفصيل لأنواع الناس في الاستجابة لدين الله تعالى، فذكر هنا القسم الأول وهو الَّذي يجادل ويعاند فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾، ثم ذكر بعدها القسم الآخر وهم

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 446.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 3/ 519.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 109.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 17/ 206.

أهل التردُّدِ والنفاقِ فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾، ومعنى اللّفظ: ومن النّاس فريق يجادل في الله، فيدخل في ذلك كلّ مجادل في ذات الله، أو صفاته أو شرائعه الواضحة[1].

دلالةُ الاسمِ الموصولِ ﴿مَن﴾ في قولِهِ: ﴿مَن يُجَٰدِلُ﴾:

يدلُّ التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ، في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾، على عُمومِ الآيةِ لكلِّ مَنْ يُجادِلُ في اللهِ بغيرِ علمٍ، ويتصدَّى لإضلالِ النّاسِ وإغوائِهم، وعلى رأسِهم أئمَّةُ الشِّركِ، وزُعَماءُ الباطلِ[2].

عُمومُ الآيةِ يشملُ كلَّ مُجادلٍ في اللهِ بغيرِ علم

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يُجَٰدِلُ﴾ في السّياق:

في التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ، في قولِ الحقِّ جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾، دلالةٌ على استمرارِ هؤلاءِ المعاندينَ الجاحدينَ في جدالِهم، وتجدُّدِهِ منهُم، فهو دَيْدَنُهم وشأنُهم الَّذي أولِعَتْ بهِ أنفُسُهم وضَريتْ بهِ؛ لأنَّ عَمَى الجهلِ والعِنادِ، سدَّ عليهِم طُرُقَ الحقِّ الَّتي تُحيطُ بهِم.

استمرارُ الجدالِ وتجدُّدُهُ دليل على تأصّله وتجذّره

دلالةُ صيغةِ التَّفاعلِ في لفظ: ﴿يُجَٰدِلُ﴾:

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ التَّفاعلِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾، على أنَّ هؤلاءِ المعاندينَ الجاحدينَ يجادلونَ بغايةِ جَهْدِهم[3]؛ لأنَّ هذهِ الصّيغةَ تقتضي المشاركةَ بينَ الطَّرفينِ في الجدالِ، وذلكَ يستلزمُ أنْ يَبْذُلَ كلٌّ منهُما غايةَ الوُسْعِ؛ لإقامةِ الحُجَّةِ على الآخرِ، وإظهارِ عَجْزِهِ، فالعَجَبُ لهؤلاءِ المعاندينَ مِنْ شدَّةِ صلابتِهم في باطلِهم، وتمسُّكِهم بغيِّهم وضَلالِهم!

بَذْلُ المُجادلينَ وُسْعَهم في الجدالِ مسلكٌ في العِنادِ والضّلالِ

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 519.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 519.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 14.

علّةُ حذفِ مفعولِ ﴿يُجَٰدِلُ﴾ في سياق الآية:

الجدال بغير حق شيمة أهل الباطل في كل زمن

حذفُ مفعولِ الفعلِ ﴿يُجَٰدِلُ﴾، في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾؛ لإفادةِ العُمومِ في المفعولِ، وأنَّ الجاحدينَ المعاندينَ، يجادلونَ كلَّ مَنْ يُثبتُ وجودَ اللّهِ ووحدانيَّتَهُ، يُجادلونَ الأنبياءَ والرُّسُلَ، ويُجادلونَ المُؤمنينَ، ويُجادلونَ العلماءَ، ويُجادلونَ كلَّ مَنْ يخالفُ هواهم وغَيَّهم وضَلالَهم.

وقد يكون الغرض من حذف المفعول من باب تنزيل المتعدي منزلة اللازم، لأن الغرض من الآية الإنكار على المجادلة بغير حق في ذاتها بقطع النظر عن الَّذين يقع عليهم فعل المجادلة.

بلاغةُ الإيجازِ في التّعبير عن الجدال في الله:

الله تعالى حق لا يماري فيه إلا الجاحدون

في قولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾، إيجازٌ بالحذفِ، والتَّقديرُ: (ومِنَ النّاسِ مَنْ يُجادِلُ في شأنِ اللّهِ، فيدخلُ في ذلكَ كلُّ مجادلٍ في ذاتِ اللّهِ، أو صفاتِهِ وقُدرتِهِ وعلمِهِ ووحدانيَّتِهِ، أو شرائعِهِ الواضحةِ)[1]، فيكونُ في هذا الإيجازِ تعميمٌ، وفيهِ أيضًا تقبيحٌ للمُجادَلةِ، بأنَّها واقعةٌ في اللّهِ ﷻ، الَّذي لا ينبغي أنْ يُرتابَ فيهِ، ولا يُجادَلَ في وُجودِهِ ووحدانيَّتِهِ، واتِّصافِهِ بصفاتِ الكمالِ، بعدَما تقدَّمَ مِنَ الأدلَّةِ والبيانِ الَّذي لا مِثْلَ لهُ، ولا خَفاءَ فيهِ[2].

نكتة إعراب قوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾:

الجدال مذموم وصاحبه إلى الخزي في الدارين

قولُهُ: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ في ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، يجوزُ أنْ يتعلَّقَ بالفعلِ ﴿يُجَٰدِلُ﴾[3]، ويجوزُ أنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ حالٍ مِنْ فاعلِ ﴿يُجَٰدِلُ﴾، أي: يجادلُ مُلتبسًا بغيرِ علمٍ، أي: جاهلًا[4]،

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 519، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4949.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 14.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 8/ 236.
(4) السّمين، الدّر المصون: 8/ 236، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 96.

وعلى تعلّق الجارّ والمجرور بالفعل يكون المعنى: (الجدال بغير علم مذموم في ذاته)، وعلى تعلقه بفاعل المجادلة يكون المعنى: (الَّذي يجادل وهو بلا حجة ولا دليل مذموم منبوذ)، والمحصلة من التقديرين أنَّ مآل الجدال وصاحبه الخزي في الدنيا والآخرة.

سرُّ تكرارِ حرفِ النَّفي في: ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ﴾:

التَّنبيهُ على استقلالِ كلٍّ مِنَ المعطوفينِ وأهميّته في الدّلالة

تكريرُ حرفِ النَّفي في المعطوفين في قولِهِ ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾، حيثُ لم يُقَلْ: (بغيرِ علمٍ وهُدىً وكتابٍ مُنيرٍ)؛ تنبيهٌ على استقلالِ كلٍّ منهُما[1]، وذلكَ أنسبُ بمقامِ تقبيحِ الجِدالِ الَّذي ليسَ لهُ شيءٌ يستندُ إليهِ مِنْ عقلٍ ولا نقلٍ.

علَّةُ عدم الاستغناء بذكرِ (العِلمِ) عن ذكرِ (الهُدى):

المرادُ مُجادَلةُ المُقلِّدِ الَّتي هي دونَ مرتبةِ المُجادَلةِ بعِلمٍ

الهُدى في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ مصدرٌ في معنى المضافِ إلى مفعولِهِ، أي: ولا هُدىً هو مَهْدي بهِ، وتلكَ مُجادَلةُ المُقلِّدِ، إذا كانَ مُقلِّدًا هاديًا للحقِّ، مِثْلَ أتباعِ الرُّسُلِ، وهذا دونَ مرتبةِ مَنْ يُجادِلُ في اللهِ بعِلمٍ، ولذلكَ لم يُستغْنَ بذكرِ السّابقِ عن ذكرِ هذا[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في وصف الكتاب بالإنارة:

الكتاب مِصباحٌ مُضيءٌ في ظلام اللَّيلِ الحالك

المرادُ بالكتابِ المُنيرِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾، الكتابُ المُبينُ للحقِّ، وفيهِ استعارةٌ مكنيَّةٌ، حيث شُبِّهَ الكتابُ بالمِصباحِ المُضيءِ في اللَّيلِ، ثمَّ حُذِفَ المُشبَّهُ بهِ، وهو المِصباحُ، وأُبقي على شيءٍ مِنْ لوازمِهِ، وهو الإنارةُ، على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ[3].

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 20.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 208.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 208.

نكتةُ التَّعريضِ في نفي وجود كتاب منير:

التَّعريضُ بالكافر الكنود إبراز لغضب الله على كلّ مناوئ جحود

يجيءُ في وصفِ الكتابِ بصفةِ الإنارةِ، في قولِهِ جلَّتْ كلمتُهُ: ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾، تعريضٌ بالنَّضرِ بنِ الحارثِ - على القولِ بأنَّ الآيةَ نازلةٌ في حقِّهِ - إذ كانَ يُجادِلُ في شأنِ الإسلامِ، بالموازنةِ بينَ كتابِ اللهِ المُنيرِ، وبينَ كُتُبِ أخبارِ رُسْتَمَ وأخبارِ أسفنديارَ المُظلمةِ الباطلةِ[1].

نكتةُ الجمعِ بينَ العِلمِ والهُدى والكتابِ المُنيرِ:

تأكيدُ أنَّ الجدالَ المذكورَ بظنٍّ وتخمينٍ لا بحقٍّ ويقينٍ

قيلَ في تفسيرِ قولِهِ جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾: المرادُ بالعِلمِ: العِلمُ الضَّروريُّ، وبالهُدى: الاستدلالُ والنَّظرُ؛ لأنَّهُ يهدي إلى المعرفةِ، وبالكتابِ المُنيرِ: الوَحْيُ، والمعنى أنَّهُ يُجادِلُ بظنٍّ وتخمينٍ[2]، مِنْ غيرِ مُقدِّمةٍ ضروريَّةٍ ولا نظريَّةٍ ولا سمعيَّةٍ، وهو كقولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الحج: 71]، وقولِهِ: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف: 4][3]، وفي ذلكَ تقبيحٌ لحالِ هذا المُجادِلِ في شأنِ اللهِ، بعدَ وُضوحِ الدَّلائلِ؛ لأنَّهُ بانتفاءِ هذهِ الثَّلاثةِ، لا يكونُ جدالُهُ إلّا بالباطلِ[4]، وقيلَ: الأولى حَمْلُ العِلمِ على العُمومِ، وحَمْلُ الهُدى على معناهُ اللُّغويِّ، وهو الإرشادُ[5].

نكتةُ التَّنكيرِ في الأسماء ﴿عِلْمٍ﴾ ﴿هُدًى﴾ ﴿كِتَٰبٍ﴾:

التَّنكيرُ لإفادةِ العُمومِ فليس للمجادل بالباطل دليل يعضده

يفيدُ التَّنكيرُ في قولِهِ تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ العُمومَ؛ لأنَّ النَّكرةَ في سياقِ النَّفيِ تعمُّ، فيكونُ هذا المُجادِلُ عاريًا عن كلِّ ما يَعْضُدُ جدالَهُ، وليس عنده علم ضروريّ، ولا علم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 208.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 146.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 207.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 15.
(5) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 519.

مكتسب بالنّظر الصّحيح العقليّ، ولا علم من وحي، فهو جاهل محض من جميع الجهات[1].

نكتة إعراب ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾ وأثره في فهم السّياق:

الحال تحدّد المعنى وتصف معالم المشهد بدقّة

قولُهُ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾، منصوبٌ على الحالِ مِنْ فاعلِ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾، والمعنى: (ومِنَ النّاسِ مَنْ يُجادِلُ في اللّهِ بغيرِ علمٍ مُتكبِّرًا مُعرِضًا)[2]، فاجتمع بهذا القيد ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾ للمجادلِ كلُّ موانع قبول الحق والانقياد له، وهي الجهل وانعدام العلم مع التكبر والجحود.

بلاغةُ الكنايةِ في قولِهِ: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾:

ثَنْيُ العِطْفِ من خصائص التَّكبُّرِ والإعراضِ

قيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾: إنَّ معناهُ: مُتكبِّرًا في نفسِهِ[3]، وقيلَ: مُعرِضًا عمّا يُدْعَى إليهِ[4]، وسواءٌ كانَ عبارةً عنِ التَّكبُّرِ أوِ الإعراضِ، يكونُ استعمالُهُ على طريقِ الكنايةِ؛ لأنَّ كلًّا مِنَ الكِبْرِ والإعراضِ يستلزمُ ثَنْيَ العِطْفِ عادةً، فذُكِرَ اللّازمُ، وأُريدَ بهِ الملزومُ، كما هو طريقُ الكنايةِ[5].

براعةُ التَّصويرِ في قولِهِ: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾:

تشخيصُ صورةِ المُتكبِّرِ والمُعرِضِ عنِ الحقِّ في السّياق

قولُهُ جلَّ شأنُهُ: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾، يرسمُ صورةً لكِبْرِ هذا المُجادِلِ بالباطلِ، حيثُ يكونُ مائلًا بجنبه، فهو لا يستندُ إلى حقٍّ، فيُعوِّضُ عن هذا بالعجرفةِ والكِبْرِ، ويُعطينا التَّعبيرُ القرآنيُّ أيضًا التَّدرُّجَ الطَّبيعيَّ للإعراضِ عنِ الحقِّ الَّذي يبدأُ بلَيِّ الرَّأسِ، ثمَّ الجانبِ، ثمَّ يُعطيكَ دُبُرَهُ، هذهِ كلُّها علاماتٌ للفرارِ مِنَ الجَدَلِ حينَ لا يَقْوَى المُجادِلُ على الإقناعِ[6].

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: 4/ 280.
(2) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 414، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 447، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 96.
(3) الرّازي، ، مفاتيح الغيب: 23/ 207، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 66.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 16.
(5) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 13/ 21، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 117.
(6) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 16/ 9719.

سرُّ إفرادِ الضَّميرِ في لفظ: ﴿عِطۡفِهِۦ﴾ وما بعدَهُ:

لي العطف وثنيه تصوير تمثيليّ لمشهد الكبرياء والصّلف

إفرادُ الضَّمائرِ في قولِهِ تعالى: ﴿عِطۡفِهِۦ﴾، وما ذُكِرَ بعدَهُ مراعاةٌ للفظِ (مَنْ)، في قولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾، وإنْ كانَ معنى تلكَ الضَّمائرِ الجمعَ[1]، ومعنى ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾، أنّهُ" يجادل في اللّه حال كونه ثاني عِطْفِهِ، يعنى لاويا عنقه موليّا جنبيه، طاويا كشحه عنها كبرا وخيلاء على أصحاب الدّلائل والبراهين، وأرباب الكشف والشّهود، عتوّا واستكبارا"[2].

القراءاتُ وتوجيهُها في ﴿لِيُضِلَّ﴾:

تـعـدُّدُ المعاني بتعدُّدِ القراءاتِ مفيد لتنوّع الدّلالة

اختلفَ القُرّاءُ، في قولِهِ تعالى: ﴿لِيُضِلَّ﴾: فقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو ورويْسٌ بخُلْفٍ عنه بفتحِ الياءِ، وقرأ الباقونَ بضمِّها[3]، أمّا القراءةُ بضمِّ الياءِ، فمن: (أضلَّ يُضِلُّ) المتعدِّي؛ فدلالةٌ على أنَّ هذا المُجادِلَ جادلَ وأظهرَ التَّكبُّرَ؛ ليتبعَهُ غيرُهُ، فيُضِلَّهُ عن طريقِ الحقِّ، فجمعَ بينَ الضَّلالِ والكفرِ وإضلالِ الغيرِ، وأمّا القراءةُ بفتحِ الياءِ، فمن (ضلَّ يَضِلُّ) اللازم؛ فالمعنى أنَّهُ فعلَ ذلكَ؛ ليَضِلَّ هو في نفسِهِ[4]، فاللام على هذا للعاقبة؛ أي: لتكون عاقبته إلى ضلال، وهذا تحذير شديد من الجدال والكبر إذ يصيران بصاحبهما للضلال المبين، ومن بلاغة هاتين القراءتين أن هذا المتكبِّر جَمَع بين الضّلال في نفْسه وبين إضلال غيره، فأتى بجريمتين.

دلالةُ اللّامِ في قولِهِ: ﴿لِيُضِلَّ﴾:

بيان أنّ اللّام للتّعليلِ حقيقةً أو على سبيلِ الاستعارةِ

قُرِئَ قولُهُ تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ بفتحِ الياءِ وضمِّها كما تقدَّمَ، أمّا على قراءةِ ضمِّ الياءِ فاللّامُ للتَّعليلِ على سبيلِ الحقيقةِ؛ لأنَّهُ يصحُّ أنْ يكونَ الغَرَضُ إضلالَ الغيرِ، وأمّا على قراءةِ فتحِ الياءِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 17/ 209.
(2) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية: 1/ 548.
(3) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 299.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 207، والسّمين، الدّر المصون: 8/ 236.

فأوردَ سؤالٌ حاصلُهُ: أنَّ اللّامَ إمّا تعليلٌ للمُجادَلةِ، ويَرِدُ عليهِ أنَّ أحدًا لا يُجادِلُ ليَضِلَّ، والجوابُ: أنَّهُ لمّا أدَّى جِدالُهُ إلى الضَّلالِ، جُعِلَ كأنَّهُ غَرَضُهُ[1]، يعني: لمّا كانَتْ عاقبةُ جِدالِهِ الضَّلالَ، كانَ مُشبَّهًا بالغَرَضِ في التَّرتُّبِ على الفعلِ، فاللّامُ الدّاخلةُ عليهِ لامُ العاقبةِ، ومُستعارةٌ لها مِنَ الغَرَضِ استعارةً تبعيَّةً[2].

وإمّا تعليلٌ لثَنْيِ العِطْفِ، ويَرِدُ عليهِ، أنَّهُ لم يكنْ مُهتديا ليَضِلَّ، وأُجيبَ: بأنَّهُ لمّا كانَ الهُدى مُمكِنًا لهُ، فتركَهُ وأعرضَ عنهُ، وأقبلَ على الجدالِ بالباطلِ - جُعِلَ كالخارجِ مِنَ الهُدى إلى الضَّلالِ[3]، أي: جُعِلَ التَّمكُّنُ مِنَ الهُدى والاقتدارُ عليهِ كحصولِهِ بالفعلِ[4].

سرُّ حذفِ المفعولِ على قراءةِ ضمِّ الياءِ:

المرادُ بالإضلالِ على قراءةِ ضمِّ الياءِ، في قولِهِ ﷻ: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: إمّا الإخراجُ مِنَ الهُدى إلى الضَّلالِ؛ فالمفعولُ مَنْ يُجادِلُهُ مِنَ المُؤمنينَ، أو النّاسِ جميعًا بتغليبِ المُؤمنينَ على غيرِهم، وإمّا التَّثبيتُ على الضَّلالِ أو الزّيادةُ عليهِ مجازًا؛ فالمفعولُ همُ الكَفَرةُ خاصَّةً[5].

المرادُ عمومُ النّاسِ أو طائفةٌ مخصوصةٌ منهُم

المرادُ بقولِهِ تعالى: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

المرادُ بسبيلِ اللهِ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: دينُهُ، وهو الدّينُ الحقُّ[6]، أي: ليُضِلَّ عنِ الدّينِ الحقِّ؛ وهو دينُ الإيمانِ والتَّوحيدِ، وفي التَّعبيرِ عنهُ بالسَّبيلِ بَراعةٌ؛ لأنَّهُ يُصوِّرُ أنَّ الطَّريقَ المستقيمَ الموصِلَ إلى رِضوانِ اللهِ سبحانَهُ وتعالى، هو دينُ الإيمانِ والتَّوحيدِ، ومَنْ ضلَّ عنهُ وأضلَّ غيرَهُ، فقد خَسِرَ خُسْرانًا مُبينًا، وتاهَ في شِعابِ الضَّلالِ والكُفْرِ.

سبيلُ اللهِ هو الدّينُ الحقُّ والصّراط القويم المحقّق

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 146، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 448.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 22.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 146، والطيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 448.
(4) ابن التّمجيد، حاشيّة على البيضاويّ: 13/ 21.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 97، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 117.
(6) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 430، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 208.

نكتةُ إظهارِ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

زيادةُ التَّقبيحِ والتَّشنيعِ بإظهارِ الاسمِ الأعظمِ الرَّفيعِ

أُظهِرَ لفظُ الجلالةِ في قولِ اللهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ولم يُقَلْ: (ليُضِلَّ عن سبيلِهِ)، أي: عن سبيلِ اللهِ الدّالِّ عليهِ قولُهُ: ﴿يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾؛ لِما في الإظهارِ مِنْ مزيدِ التَّقبيحِ والتَّشنيعِ لحالِ هذا المُجادِلِ بالتَّعرُّضِ للفظِ الجلالةِ مرَّتينِ، فهو يُجادِلُ فيما لا ينبغي الجِدالُ فيهِ؛ وهو اللهُ تعالى، ويريدُ أنْ يُضِلَّ عنِ السَّبيلِ المُستقيمِ الَّذي لا ينبغي الضَّلالُ عنهُ وهو سبيلُ اللهِ.

بلاغةُ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

تشريفُ سبيلِ الحقِّ بإضافتِهِ إلى اللهِ الحقِّ

أُضيفَ السَّبيلُ إلى لفظِ الجلالةِ، في قولِ الحقِّ جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ تشريفًا لسبيلِ الإيمانِ والتَّوحيدِ؛ لِما تُنبِئُ عنهُ الإضافةُ مِنِ اختصاصِ هذا السَّبيلِ بالانتسابِ إليهِ تعالى شأنُهُ، وتشنيعًا على الَّذي يضل عن سبيل؛ كيف يضل عنه وهو سبيل اللهِ الواحد القهار؟!.

نكتةُ إعرابِ جملةِ: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾:

احتمالُ الجملةِ للاستئنافِ والحالِ تأويلٌ على أكثرَ من معنى

قولُهُ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾، جملةٌ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ لبيانِ نتيجةِ ما سلكَهُ مِنَ الطَّريقةِ، أي: يَثْبُتُ لهُ في الدُّنيا بسببِ ما فعلَهُ خِزْيٌ؛ وهو ما أصابَهُ يومَ بدرٍ مِنَ القتلِ والهَوانِ[1]، والكلامُ وإنْ كانَ خاصًّا بالمشركينَ مِنْ أهلِ مكَّةَ، لكنَّ الحكمَ عامٌّ[2].

وجوزَ أنْ تكونَ هذهِ الجملةُ حالًا مُقارِنةً، أي: مُستحِقًّا ذلكَ، وأنْ تكونَ حالًا مُقدَّرةً[3].

نكتةُ تقديمِ ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ على ﴿خِزْيٌ﴾:

الاختصاصُ وتعجيلُ المَساءةِ مفيدٌ في بيانِ المرادِ

قُدِّمَ قولُه تعالى: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا﴾، على لفظِ ﴿خِزْيٌ﴾؛ لإفادةِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 97، والشّوكاني، فتح القدير: 3/ 520.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 22.
(3) السّمين، الدّر المصون: 8/ 236.

الاختصاصِ، ببيانِ أنَّ الخِزْيَ والصَّغارَ لهذا المُجادِلِ ومَنْ على شاكلتِهِ لا لغيرِهِ، وتعجيلِ مَساءتِهِ، ببيانِ أنَّ الخِزْيَ لهُ وأنَّهُ يَلْحَقُهُ في الدُّنيا، فيكونُ ذلكَ أدعى لاغتمامِهِ؛ لأنَّ الشَّرَّ إذا تُيُقِّنَ وقوعُهُ وقَرُبَ ازدادَ خوفُ النَّفْسِ واضطرابُها بسببِهِ.

علَّةُ تنكيرِ لفظِ ﴿خِزْيٌ﴾:

يدلُّ تنكيرُ ﴿خِزْيٌ﴾ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾، على تفخيمِ شأنِ هذا الخِزْيِ وتهويلِهِ المناسبينِ لمقامِ الوعيدِ، وبيانِ سوءِ العاقبةِ، أي: لهُ في الدُّنيا خِزْيٌ عظيمٌ هائلٌ لا يوصَفُ؛ لِما يَحيقُ بهِ مِنَ القتلِ والأَسْرِ[1]، وذمِّ المؤمنينَ ولَعْنِهم لهُ[2]، وكأنَّ الدُّنيا كلَّها ليستْ إلّا مَحَلًّا لذُلِّهِ وهَوانِهِ، ولم يَخرُجْ منها بغيرِ ذلكَ.

تعظيمُ شأنِ الخِزْيِ وتهويلُهُ بكونِ الدّنيا محلًّا له

وجهُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ في سياقِ الآيةِ:

في اختيارِ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ، في قولِهِ ﷻ: ﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾، حيثُ لم يُقَلْ مثلًا: (نُخْزيهِ في الدُّنيا) دلالةٌ على ثبوتِ الخِزْيِ واستقرارِهِ، وأنَّ اللّهَ تعالى قد حكمَ بهِ، وقضى بهِ قضاءً مُبرَمًا، فضربَ الخِزْيُ بجِرانِهِ عليهم، ولَزِمَهم لُزومَ الصَّمْغِ.

الدَّلالةُ على ثبوتِ الخِزْيِ واستقرارِهِ تبريزٌ للمعنى المقصودِ

دلالةُ إعرابِ جملةِ: ﴿وَنُذِيقُهُۥ﴾:

قولُهُ ﷻ: ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، معطوفٌ على قولِهِ: ﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾، ويفيدُ هذا العطفُ أنَّ هذا المُجادِلَ بالباطلِ وأمثالَهُ، قد جُمِعَ لهُم بينَ الخِزْيِ في الدُّنيا، وعذابِ الحريقِ في الآخرةِ، فأحاطَ بهم العذابُ مِنْ جانبَيْهِم.

ما أخزى الظالمين بالذل في الدنيا والعذاب في الآخرة!

بلاغةُ الاستعارةِ في الإذاقةِ من العذابِ:

في قولِ اللّهِ جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، استعارةٌ مكنيَّةٌ، وذلكَ بتشبيهِ عذابِ النّارِ بالشَّيءِ المَذوقِ، ثمَّ حُذِفَ

ربطُ عذابِ النّارِ بالشَّيءِ المَذوقِ المحسوسِ

(1) ابن عطيّة، المحرّ الوجيز: 4/ 109، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 66.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 207.

المُشبَّهُ به، وهو الشَّيءُ المَذوقُ، وأُبقي على شيءٍ مِنْ لوازمِه، وهو الإذاقةُ، على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ[1]، والمعنى: (ونجعلُهُ يُحِسُّ بألمِ العذابِ بالحريقِ كما يُحِسُّ الذّائقُ بالشَّيءِ المَذوقِ، كما أحرقَ قُلوبَ المُهتدينَ بجدالِه بالباطلِ)[2]، وفي اختيارِ لفظِ الإذاقةِ أيضًا تأكيدٌ لإصابةِ عذابِ الحريقِ لهُ؛ لأنَّ الشَّيءَ المَذوقَ يتمكَّنُ مِنْ حاسَّةِ الذَّوْقِ بحيثُ لا يُمكِنُها دَفْعُهُ، وكذلكَ الإحساسُ بالعذاب.

نكتةُ إسنادِ الفعلِ إلى نونِ العظَمةِ:

تعظيمُ شأنِ إذاقتِهِ عذابَ الحريقِ تهويل لنوعِ العذاب المحتمل

قوله تعالى: ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، أُسنِدَ فعلُ الإذاقةِ إلى نونِ العظَمةِ في قولِ الحقِّ جلَّتْ كلمتُهُ: ﴿وَنُذِيقُهُۥ﴾؛ لتعظيمِ شأنِ إذاقتِهِ عذابَ الحريقِ، أي: ونُذيقُهُ بما لَنا مِنَ العظَمةِ عذابَ الحريقِ[3]، وعذابُ العظيمِ عظيمٌ، لا يُقادَرُ قَدْرُهُ، ولا يُحاطُ بكُنْهِه، و"الحريق بمعنى المحرق، فيجوز أن يكون من إضافة المسبّب إلى سببه على أن يكون الحريق عبارة عن النّار، وأن يكون من إضافة الموصوف إلى صفته والأصل: العذاب الحريق"[4].

علَّةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ في ﴿وَنُذِيقُهُۥ﴾:

وقوعُ إذاقتِهِ عذابَ الحريقِ مستقبلًا تخويف من المصير

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ، في قولِهِ جلَّ وعزَّ: ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾؛ لأنَّ إذاقةَ هذا المُجادِلِ وأمثالِهِ عذابَ الحريقِ، أمرٌ مُستقبليٌّ، يكونُ يومَ القيامةِ، كما نصَّ عليهِ قولُهُ: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، فاختيرَتْ صيغةُ المضارعِ الدّالَّةُ على الاستقبالِ، فجُمِعَ له بهذا بين العذاب الحاضر وهو خزي الدنيا، وبين عذاب الآخرة وهو النار، وهذا من أشد الوعيد وأبعد الخسران.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 209.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 16.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 16.
(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 9.

دلالةُ الظَّرفِ ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ في السّياق:

تحديدُ زَمَنِ وقوعِ عذابِ الحريقِ موضح لخطره في المآل

يدلُّ التَّعبيرُ بظرفِ الزَّمانِ، في قولِهِ جلَّتْ كلمتُهُ: ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾، على تحديدِ زَمَنِ وقوعِ عذابِ الحريقِ، وأنَّهُ يكونُ يومَ القيامةِ الَّذي يُجمَعُ فيهِ الخلائقُ بالإحياءِ بعدَ الموتِ[1]، وفي التَّعبيرِ بهِ تقابلٌ معنويٌّ بينَهُ وبينَ الدُّنيا، في قولِهِ: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ﴾، وفي ذلكَ زيادةُ حَسْرةِ المُجادِلِ، ببيانِ أنَّهُ لم يَنَلْ مِنْ دُنياهُ وآخرتِهِ إلّا الخِزْيَ في الدُّنيا، وعذابَ الحريقِ في الآخرةِ.

المرادُ بلفظِ ﴿ٱلۡحَرِيقِ﴾ في الآية الكريمة:

مصير الكافر يوم القيامة إلى النار ودركاتها وعذابها المحرق

اختُلِفَ في المرادِ بالحريقِ في قولِهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾: فقيلَ: الحريقُ طبقةٌ مِنْ طبقاتِ جهنَّمَ[2]، وقيلَ: قولُهُ: ﴿عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ مِنْ إضافةِ الموصوفِ إلى صفتِهِ، أي: العذابَ الحريقَ، أي: المُحرِقَ، كالسَّميعِ بمعنى المُسمِعِ[3]، وقيلَ: المعنى النّارَ البالغةَ في الإحراقِ، والإضافةُ مِنْ إضافةِ المُسبَّبِ إلى السَّببِ[4].

التّشابه اللّفظيّ بين آيتي سورة الحجّ (3) و(8) وآية لقمان (20):

أثر الزيادة في المبنى على الزّيادة في المعنى

التَّشابهُ اللَّفظيُّ بينَ قولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾، وقولِهِ سبحانَهُ في آيةٍ سابقةٍ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣﴾ [الحجّ: 3]: في الآيتينِ حديثٌ عمَّنْ يُجادِلُ في اللّهِ بغيرِ علمٍ، وقد زادَتْ هذهِ الآيةُ نَفْيَ الهُدى والكتابِ المُنيرِ، وزادتِ الآيةُ السّابقةُ أنَّهُ يتَّبِعُ كلَّ شيطانٍ مَريدٍ، وفُرِّقَ بينَ الآيتينِ – على بعضِ الأقوالِ في تفسيرِهما – بأنَّ الآيةَ السّابقةَ لبيانِ حالِ الضُّلّالِ الجُهّالِ المُقلِّدينَ، وهذهِ الآيةَ لبيانِ حالِ الدُّعاةِ إلى الضَّلالِ مِنْ رؤوسِ الكفرِ والبِدَعِ[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 16.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 109.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 488، والسمين، الدر المصون: 8/ 237.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 118.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 399، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 17/ 91.

والتَّشابهُ اللَّفظيُّ بينَ قولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾، وقولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان: 20]: بينَ الموضعينِ اتِّفاقٌ تامٌّ في اللَّفظِ، إلّا أنَّ ما هنا آيةٌ تامَّةٌ، وما في لُقمانَ جزءٌ مِنْ آيةٍ؛ إذ صَدْرُ آيةِ لُقمانَ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: 20]، وقيلَ في التَّشابهِ بين هاتين الآيتين: إنَّ ما في هذهِ السّورةِ وافقَ ما قبلَهُ مِنَ الآياتِ مِنْ حيثُ الفاصلةُ، وهي: ﴿قَدِيرٌ﴾، ﴿ٱلْقُبُورِ﴾، وكذلكَ ما في لُقمانَ وافقَ ما قبلَهُ وما بعدَهُ مِنَ الفواصلِ، وهي: ﴿ٱلْحَمِيدُ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: 19]، ﴿ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمان: 21]، ﴿ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [لقمان: 22][1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجِدالُ والمِراءُ والحِجاجُ:

المِـراءُ مشاحنة مـذمـومـة والـجـدالُ لـلـرُّجـوعِ عـنِ المـذهـبِ والحِجاجُ لإظهارِ الحُجَّةِ

الجِدالُ والمِراءُ مُتقاربا المعنى، وفُرِّقَ بينَهما: بأنَّ المِراءَ مذمومٌ؛ لأنَّهُ مُخاصَمةٌ في الحقِّ بعدَ ظُهورِهِ، وليسَ كذلكَ الجِدالُ[2]، وأمّا الفرقُ بينَ الجِدالِ والحِجاجِ: فهو أنَّ المطلوبَ بالحِجاجِ هو ظُهورُ الحُجَّةِ، والمطلوبَ بالجِدالِ الرُّجوعُ عنِ المذهبِ؛ فإنَّ أصلَهُ مِنَ الجَدْلِ، وهو شدَّةُ الفَتْلِ، ويُؤيِّدُهُ قولُهُ سبحانَهُ: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: 32]، وقولُهُ: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النّحل: 125]، وذلكَ أنَّ دَأْبَ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، رَدْعُ أقوامِهم عنِ المذاهبِ الباطلةِ، وإدخالُهم في دينِ اللهِ، بإيرادِ الأدلَّةِ والحُجَجِ، وقد يُرادُ بالجِدالِ مُطلَقُ المُخاصَمةِ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [النّساء: 109]، وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾ [هود: 74] فقيلَ:

(1) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 144.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 159.

إنَّهُ قالَ للملائكةِ: بأيِّ شيءٍ استحقّوا عذابَ الاستئصالِ؟ وهل ذلكَ واقعٌ لا مَحالةَ أم هو تخويفٌ لهُم؛ ليرجعوا إلى الطّاعةِ؟ وبأيِّ شيءٍ يُهْلَكونَ؟ وكيفَ يُنجّي اللّهُ المؤمنينَ؟ فسُمّي ذلكَ السُّؤالُ المُستقصي جِدالًا؛ فالمرادُ: يُجادِلُ رُسُلَنا، وتلكَ المُجادَلةُ مِنْ رِقّةِ قلبِهِ، ورحمتِهِ بهِم، وفي قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾ [هود: 75] إشارةٌ إلى هذا[1].

الضّياءُ والنّورُ:

الضّياءُ ما كانَ مِنْ ذاتِ الشَّيءِ المُضيءِ والنّورُ ما كانَ مُستمَدًّا مِنْ غيرِهِ

فُرِّقَ بينَ الضّياءِ والنّورِ: بأنَّ الضّياءَ: ما يتخلَّلُ الهواءَ مِنْ أجزاءِ النّورِ، فَيَبْيَضُّ بذلكَ، ويدلُّ على ذلكَ أنَّهم يقولونَ: ضياءُ النَّهارِ، ولا يقولونَ: نورُ النَّهارِ، إلا إنْ عَنَوُا الشَّمسَ[2]، وفُرِّقَ بينَهما أيضًا: بأنَّ الضّياءَ: ما كانَ مِنْ ذاتِ الشَّيءِ المُضيءِ، والنّورَ: ما كانَ مُستفادًا مِنْ غيرِهِ، وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: 5]؛ فالضّياءُ أتمُّ وأكملُ مِنَ النّورِ، والنّورُ أعمُّ منهُ[3].

الخِزْيُ والذُّلُّ:

الخِـزْيُ ذُلٌّ معَ افتضاحٍ والذلُ أعم

الفرقُ بينَ الخِزْيِ والذُّلِّ: أنَّ الخِزْيَ ذُلٌّ معَ افتضاحٍ[4]، فيكونُ الذُّلُّ أعمَّ، وفي هذا يقول ابن درستويه: بأنّ الخزي الإقامة على السّوء، ويقال: خزي يخزى خزيا، وهو أيضا إذا استحيا من سوء فعله، أو فعل قد فعله غيره به، قيل خزي يخزى خزاية، فهما في معنى واحد، وليس ذلك بشيء؛ لأنّ الإقامة على السّوء والاستحياء من السّوء ليسا بمعنى واحد[5]، وأمّا الذّلّ، فقد قال بعض المفسّرين: الذّلّ ضدّ العزّ، يقال: ذلول من الذّل، وذليل من الذّل، والأوّل من اللّين والانقياد، والثّاني من الهون والاستخفاف[6].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 89.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 332.
(3) لامنس، فرائد اللّغة، ص: 178.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 215.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 215.
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 243.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والثلاثون،
سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 34 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-76-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 34 : المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-76-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3990244 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»